مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية المجلد (06)، العدد (01)، السنة (2021)، ص 219- 230
ISSN: 2602-5566 EISSN: 2716-8999

# كرامة الإنسان والممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية المعاصرة

# Human dignity and Contemporary biotechnological and biotechnological practices

**نور الدين رحموني** [1*]

[1] أستاذ بقسم الفلسفة كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة باتنة 1 (الجزائر)، noureddine.rahmouni@univ-batna.dz، عضو في مخبر بحث "فلسفة علوم وتنمية بالجزائر" جامعة وهران 2.

**تاريخ الإرسال: 2021/05/10** **تاريخ القبول: 2021/06/18**

**ملخص:**

يعالج هذا المقال إشكالية واقع الكرامة الإنسانية في عصر تسوده التقنية وعلوم الحياة، وقد وقفنا على ما للأبحاث والممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية من الأثر الكبير على الحياة الإنسانية الخاصة والعامة. وقد كان ذلك من خلال معالجة والتمحيص في الممارسات اللصيقة بالحياة الإنسانية، كالحديث عن نقل وزراعة الأعضاء، الموت الرحيم، تحسين النسل، الاستنساخ، التحويل الجنسي .... إذ من خلال هذه المواضيع الجزئية بينا ما هي الأطر التي حطت من كرامة الإنسان وما هي الأطر التي حافظت على كرامة الإنسان.

وقد خلصنا إلى أن الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية الراهنة سلاح ذو حدين، يمكن أن يستخدمها الممارس (الطبيب أو المتخصص...) في الحفاظ على كرامة الانسان، ويمكن أن يحط من كرامة الانسان بالاستغلال غير الواعي وغير المسئول لهذه التقنيات الطبية والبيولوجية.

**الكلمات المفتاحية:**

كرامة إنسانية؛ بيوتكنولوجيا؛ بيوطبية؛ بيوإتيقا؛ بيولوجيا.

**Abstract:**

This article Discusses the problem of the reality of human dignity in an era dominated by technology and biology. We have examined the great impact of biotechnological and biomedical research and practices on private and public human life. And that was by standing on the practices close to human life, such as talking about organ transplantation, euthanasia, eugenics, cloning, sexual transfer... Through these partial topics we showed what frameworks that degraded human dignity and what frameworks were Preserved human dignity.

We have concluded that current biotechnological and biomedical practices are a double-edged sword that the practitioner (doctor or specialist ...) can use to preserve human dignity, and can degrade human dignity by unconscious and irresponsible exploitation of these medical and biological techniques.

**Keywords**

Human dignity; Biotechnology;; Bioethics; Biology.

* المؤلف المرسل

**1- مقدمة**

يبدأ الدكتور "أحمد مستجير "مترجم كتاب نهاية الإنسان وعواقب الثورة البيوتكنولوجية لصاحبه "فرنسيس فوكوياما" مقدمته للكتاب باقتباس من رواية (كل رجال الملك) "لروبرت وارين" يقول فيها: نهاية الإنسان هي المعرفة، لكن شيئا واحدا لا يمكنه أن يعرفه: إنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كانت المعرفة ستنقذه أم أنها ستقتله. سيقتل، نعم، لكنه لا يستطيع أن يعرف ما إذا كان قد قتل بسبب المعرفة التي اكتسبها أم بسبب المعرفة التي لم يكتسبها، والتي كانت لتنقذه لو أنه عرفها. ويتساءل فرنسيس فوكوياما "عن ما الذي يجب أن نقوم به إزاء البيوتكنولوجيا التي ستمزج، في المستقبل، المزايا المحتملة الهائلة بتهديدات قد تكون بدنية وواضحة أو روحية وخفية؟ "(فوكوياما، 2002، 35)

لم يكن الغرض من بث هذا التساؤل محاولة الإجابة عنه، بقدر ما كان محاولة تبيان ما للممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية وتطبيقاتهما تأثيرات على الحياة الإنسانية بجانبيها الإيجابي والسلبي سواء بشقها الفيزيولوجي الظاهر أو الجانب النفسي الخفي والمعنوي؛ وبالتالي كرامة الإنسان. وسنحاول من خلال هذا الموضوع أن ننظر في الجوانب الأخلاقية التي من شأنها التأثير على الإنسان، وبالتالي كرامته.

كما أن الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية المتلاحقة والتي أصبح من الصعب اللحاق بها وبتطوراتها المتسارعة. تسعى إلى الوصول إلى نتائج إيجابية في فائدة الإنسان، وهو ما يعني أولا وأخيرا أن الإنسان هو الأكثر تعرضا لنتائج ما يجري ويجريه هو بنفسه وبالحياة على وجه هذا الكوكب وخارجه، لكن هذه الأبحاث لم يكن لها ذلك الجانب الإيجابي فقط، وإنما كذالك جانب سلبي. فأي شيء تبقى من الإنسان لم تطله يد الإنسان نفسه، نفسيته، فيزيولوجيته، كيانه المعنوي؛ وبالتالي كرامته الإنسانية؟

**2- العرض**

لا تزال الكثير من الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية بعيدة عن متناول جميع شرائح المجتمعات باختلافها. وهو ما يجعل فئة كبيرة من المجتمعات العالمية في منأى عن إيجابية وسلبية هذه الممارسات، إلا أن هذه الحلقة أصبحت تضيق يوم بعد آخر، بمعنى آخر أن هذه الممارسات أضحت في متناول الكثير من المجتمعات، هذا المتناول الذي سيحمل معه من السلبية بالقدر الذي يحمله معه من الإيجابية.

إن حديثنا عن كرامة الإنسان في خضم ما نتج عن الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية المتلاحقة يجعلنا نأمل ونتألم في الآن نفسه، وذلك لعظم الجهود الحثيثة في الوصول إلى منجزات علمية ذات وقع كبير على الحياة الإنسانية العامة. رغم عدم وجود هذه الممارسات في خط واحد وعلى نفس المسافة من جميع مستويات وأطياف المجتمع الواحد من جهة، ومن جميع مستويات المجتمعات العالمية من جهة أخرى... فما يمكن تطبيقه من هذه الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية - ويعد متناول في مجتمع ما- قد يكون غير ذلك في مجتمع آخر. غير أن ما يرتجى وما ونخشاه من وراء هذه التطبيقات قد يكون نفسه رغم اختلاف هذه الأوساط (المجتمعات).

إن "**الكَرامةُ**: اسم يوضع للإكرام"( ابن منظور، ج43 ص 3862) وفي هذه العبارات تركيز على القيمة المعنوية للإنسان كإنسان، مكانته عند الآخرين من بني جنسه، وتشريفه، بهدف عدم التجريح فيه لألا يفقد قيمته المعنوية، فالكرامة تقف في وجه الأفعال اللا أخلاقية التي قد يتعرض لها أي إنسان، والتي لا تحتكم لعقل أو وازع، سواء كان ديني أو قانوني أو عرفي...، بمعنى آخر أن القيمة المعنوية التي يمتلكها الإنسان، والتي ندعوها كرامة إنسانية هي ما تحول بيننا وبين أي تصرف قد نقدم على القيام به تجاه هذا الكائن الذي اتفقت الشرائع السماوية والوضعية على أنه لا كباقي المخلوقات؛ في شرفه وسموه ونبله وارتفاع قدره.... وألا نتصرف تجاهه بما قد يخدش أو يمس بكيانه المعنوي.

**الكرامة** في اللغة الانجليزية **Dignity** وهي "تأتي إلينا من خلال الأحرف اللاتينية dignus وdignitas. من العصور القديمة اليونانية والرومانية، والتي تعني في أدبها شيئاً مثل 'الجدارة بالشرف والاحترام' وهذا المفهوم الكلاسيكي للكرامة كشيء نادر واستثنائي يحتفظ ببعض قوته حتى في عصرنا " ( The President's Council on Bioethics (Adam Schulman) , 2008. 06 )ويظهر ذلك جليا من خلال تعاملاتنا بيننا نحن البشر؛ فيما يرضينا وفيما يُضجِرنا، ما يكبر في أعيننا رغم صغره، وما يصغر فيها رغم كبره، حتى ونحن أموات؛ ألا يبدو ذلك جلي من خلال تعاملنا مع الأموات، احتراما وتقديرا وإجلال، طبعا هي الكرامة الإنسانية ما تجعلنا نقوم بكل هذا وأكثر بكثير...

أما **البيوتكنولوجيا Biotechnology** : والتي في ترجمتها العربية تعني التقانة الحيوية فهي الكلمة الإنجليزية التي تعبّر عن تطبيق التقنية الحديثة على الكائنات الحية، وقد نجدها أحيانا قد ترجمت إلى **التقانة الحيوية**، بمعنى آخر أن العبارة في تداولها الحالي تشير إلى "ميدان جديد للبحث العلمي، يسعى العلماء فيه إلى اختبار مجموعة من التكنولوجيات الجديدة وتطبيقها في علوم الحياة. "(عبد الحليم عطية، 2010، ص 79) فتتيح بذلك البيوتكنولوجيا التعامل مع الكائن الحي على مستويات مختلفة؛ خلوية وتحت الخلوية، بناء على مجموعة من الأهداف المسطرة مسبقا. وهو ما يعني أن للبيولوجيات تطبيقات عديدة، يمكن أن تمارس على معظم فروع الحياة بكل تفاصيلها الظاهرة والدقيقة، كالنبات والحيوان والكائنات المجهرية والإنسان نفسه وحتى الصناعة. وبما أن الإنسان في تطبيقاته لهذا الفرع المعرفي الجديد يسعى إلى أن تعود عليه النتائج الايجابية المتوخاه بالفائدة، وقد يكون له ذلك، إلا أن النتائج لم ولن تكون دائما إيجابية.

أما الممارسة **البيوطبية Biomedical** فهي جميع التطبيقات البيولوجية التي تتداخل مع الطب سواء في شقها الحيواني أو الإنسانية، خاصة إذا ما وقفنا على الإنجاب بمساعدة طبية والتشخيص المبكر قبل الولادة وإزالة الأعضاء والخلايا والأنسجة.

إن طبيعة موضوعنا هي ما تفرض علينا عدم الخوض في تطبيقات البيوتكنولوجيا والبيوطب على الفروع الحيوانية والزراعية والاقتصادية وغيرها... وفي مقابل ذلك؛ تفرض علينا الاقتصار في تحليلنا على بعض المعطيات والجوانب من هذه الممارسات والتي تمس الانسان بصفة مباشرة.

سنحاول أن نبرز أوجه التماس بين الممارسات البيوتكنولوجية والبيوطبية وكرامة الإنسان، من خلال مجموعة من الإجراءات والتطبيقات المعاصرة التي لها كبير الأثر على حياة الانسان، والتي من شأن أي مطلع على الموضوع أن يفهم ما نعنيه حين قولنا؛ إن الكرامة الإنسانية أصبحت على المحك، من خلال هذه المستجدات الطارئة على الحياة الإنسانية - علما أن من أوجد هذه المستجدات هو الإنسان نفسه- كمرحلة متقدمة مما أمكنه أن يغوص في خبايا الحياة، ومكنه هذا الفعل من أن يحدث تغييرات بارزة على الحياة كلها.

لقد ساهمت الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية من تجاوز الكثير من العراقيل والمشاكل الصحية والنفسية، التي قد تسبب المساس بالكرامة الإنسانية بطريقة أو بأخرى. فنجد أنها ساهمت "في حل مشكلات قديمة كانت مستعصية، كمشكلة العقم مثلا، عن طريق حل مؤقت هو (أطفال الأنابيب) وكذلك التحكم في الجينات الوراثية للحصول على أنواع مختلفة من الدواء، كالأنسولين، والكشف عن كثير من الأمراض الوراثية التي كانت غير معروفة في عصر سابق (الهندسة الوراثية)، كما أصبح بإمكان الطب إرجاء موت الإنسان عن طريق الأجهزة المختلفة للإنعاش الصناعي (التكنولوجيا الطبية... إلخ)" (جوخة، 2006، ص11)

وعن طريق هذه الممارسات البيوتكنولوجية والبيوطبية أصبح من الممكن نقل وتعديل الجينات المعطوبة، وزرع أعضاء جديدة باستخدام المحتوى الوراثي لخلية المريض دون أن نحتاج إلى متبرع حي كان أو من ميت. لكن ما يعاب عليها كمجال بحث معاصر، أنها بالقدر الذي تساهم في تحسين النمط المعيشي والصحي والنفسي للإنسان،

أو لنقل لبعض الأشخاص، وبالتالي حفظ كرامة الانسان. فهي تدمّر وتكون سببا في تعاسة الكثيرين، طوعا أو كرها وبالتالي المساس بكرامتهم الإنسانية. وهو ما يجعلنا نقول أن الممارسات البيوتكنولوجية والبيوطبية بالنسبة لكرامة الإنسان سلاح ذو حدين. فبالقدر الذي يساعد على المضي قدما والعيش وفق أحسن الظروف قد ينغّص على الإنسان عيشه ويعيش تعيسا تعاسة لا حدود لها... ولهذا نقول فإنه " يمكن أن يزدهر العلم والتكنولوجيا بلا نهاية مع الالتزام بالمبادئ التقييدية التي تكون قوية بما يكفي لطمأنة القلق والاعتدال بما يكفي لتأمين التأييد غير المشروط من جميع الباحثين... يمكننا أن نحظى بالكرامة والعلم أيضًا، ولكن فقط إذا واجهنا الصراع بعقول متفتحة وإحساس بالقضية المشتركة" (The President's Council on Bioethics (Daniel C. Dennett), 2008 , 39)

يستعين الطب اليوم بما توصلت له البيوتكنولوجيا، في سبيل أحسن النتائج المبتغاة، هذا وأن كرامة الإنسان تمنعنا من الامتناع عن معالجة المريض، أو محاولة التخلص منه بأي طريقة كانت، ناهين بذلك حياته (قتله). حتى وإن كان طلب الموت من المريض، نفسه لآلامه الحادة مثلا. ومن ذلك يمكننا القول أن "القتل بمختلف مسمياته وأساليبه سواء عن طريق الموت الرحيم وإيقاف أجهزة الإنعاش أو الإجهاض عن طريق إسقاط الأجنة لأي سبب كان أو قتل الأطفال المشوهين والمتخلفين عقليا أو الاستنساخ، كلها أمور تلتقي عند نقطة واحدة أساسية هي حياة الإنسان" (جوخة، 2006، ص31).

يحمل كل تملص من الحالات المرضية المستعصية تناقض صارخ في مبدأه، سواء بقتل المرضى المستعصي علاجهم، أو مساعدة طالبي الموت على الانتحار. فكرامة الإنسان تكفل له الحق في العلاج لا الحق في الموت، فالعلاج محتمل للمريض نصله بعد جهود مضنية، أما الموت فهو المصير المحتوم الذي لن يكون من حق أي كان عدم الخضوع له. أضف إلى ذلك أن الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية اليوم في مزيد من التقدم، وأن المرض الذي كان مستعصيا شفائه في الماضي أصبح في الإمكان الشفاء منه. هو نفس الوضع بالنسبة للأمراض المستعصية اليوم،أصبح الشفاء منها ممكن يوم بعد آخر.

يقول التقليد " إن الحياة البشرية قيمة بلا حدود، بل ومقدسة: عدم العبث بها ، وعدم التعرض لإجراءات 'غير طبيعية' ، وبالطبع عدم إنهاؤها عمدًا ، باستثناء (ربما) في حالات خاصة مثل عقوبة الإعدام أو في شن حرب عادلة: 'لا تقتل' حياة إنسانية "(The President's Council on Bioethics (Daniel C. Dennett),2008, 40 ). فلماذا نحاول اللعب على أوتار حساسة من شأنها هدم كرامة البشرية بأسرها لا كرامة شخص بعينه. لأن كرامة الفرد تعني كرامة الإنسانية.

إن الشفاء من الأمراض يستدعي صناعة الأدوية، وهي بدورها تحتاج إلى التجريب الذي تلعب فيه الحيوانات القريبة من تركيبة الإنسان الجينية كالفئران والخنازير والقردة دورا بالغ الأهمية. إلا أنه في بعض الأحيان نجد أن المُصنّع للدواء يقوم بالتجريب على الإنسان مباشرة، معرضا حياته وبالتالي كرامته للخطر، ومنذ القديم كانت مسألة التجريب على الإنسان واردة، ففي الثقافة الزرادشتية كان الأفراد الغير منتمين إلى قوميتهم يستخدمون كوسيلة لتدريب الأطباء، "فلم يكن يسمح للطبيب، أن يزاول مهنته إلا بعد أن يبدأ حياته الطبية بعلاج الكفرة والأجانب، إذ يقضي الطبيب المقيم سنة أو سنتين في المران على أجسام المهاجرين والكفرة"(جوخة، 2006، ص13).

نلمس من هذا الذي سبق؛ تقديس لكرامة المنتمين للزرادشتية، دون سواهم. إلا أنه في العصر الحديث أصبحت كرامة الإنسان وسلامة جسده مقدسان، ويعتبران في أغلب تشريعات العالم محل تقديس واحترام. وقد يعتقد بعضنا أن الطبيب المجرب إنما يحاول أن يرفع المعاناة والغبن عن المصاب، بإقامة بعض التجارب الطبية على جسم المريض علّها تُأتي أكلها. لكن هذه ليس بالمبرر القوي الذي يجعلنا نجيز التلاعب بالإنسان وكرامته.

تتم بعض التجارب في بعض البلدان من العالم؛ على المحكومين بالسجن المؤبد، أو المحكومين بالإعدام، تشريحا لجثثهم أو **تجريب** بعض الأدوية عليهم في سبيل الاكتشاف. إذ "أجرى أطباء ألمان تجارب على أسرى حرب أو على أفراد من ديانة أخرى، دون التقيد بالشروط القانونية. ومن بين هذه التجارب، البحث عن معرفة آثار المرتفعات العليا، والتجميد بالبرودة، وأثر الكيماويات، والسموم، والمصل المضاد للغرغرينان والهرمونات الاصطناعية، وأثر السلفاميد على الجروح المتلوثة، والتيفوس والعمليات الجراحية في الأعصاب، والعضلات والعظام، والتعقيم والأوثانازيا" (جوخة، 2006، 51،52).

إن الكرامة الإنسانية كما سبق هي احترام الإنسان حتى بعد مماته، إلا إذا كانت الأهداف سامية ترفع من قدر الميت ومن كرامته وبالتالي كرامة الإنسانية جمعاء؛ كأن نبتغي معرفة المجرم أو أن هذا الشخص قد أوصى بأن يستفاد من جسمه في الأبحاث العلمية التي تفيد البشرية دون الخروج عن إطار المنطقي المعقول ويأتي "حظر التجارب العلمية على أساس أنها 'تنتهك كرامة الإنسان'، هذا الأخير الذي يشير الحدس الأخلاقي القوي بأن هناك ممارسات معينة خاطئة تعامل الناس على أنهم دون البشر أو حتى غير البشر، على سبيل المثال، عندما يعرّض البشر مثل "خنازير غينيا" للتجربة دون الموافقة المناسبة ، أو عندما يبدأ البشر يستخدمون كأشياء ممكنة للبحث والتدمير "(The President's Council on Bioethics, (Robert P. Kraynak), 2008,62)

يكون كذلك من الجائز أحيانا التجريب على الإنسان، شريطة أن يكون الهدف هو سلامة الإنسان، حياته، كرامته وكيانه المعنوي. دون ممارسة أي ضغط مالي أو أي نوع من الإكراه لقبول التجريب عليه... وقد نظم القانون هذا الباب، ليتقيد به الأطباء والمتطوعون، ويعاقب كل من يخرج عن بنود هذه القوانين التي بدورها تختلف من بلد إلى آخر. دون أن ننسى أن طواعية التبرع لا تعفي الطبيب المجرب من مسؤولياته الأخلاقية (احترام الإنسان وكرامته المعنوية).

لقد خطت الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية خطوات عملاقة، يعجز الانسان البسيط عن تصديقها... فمن خلال التشخيص المبكر Early Diagnosis أصبح من الممكن معرفة الأمراض المحتملة التي قد يولد الجنين بها، ومقدار التشوه الذي قد يحمله... وهو التطور الذي جعل من البعض يقضي بأن العاهات التي يخرج الطفل مزود بها عند مجيئه لهذا العالم قد تسبب له المتاعب وكذا لوالديه؛ ماديا ومعنويا، وهو وضع لا يجعلنا "نستغرب التعارضات التي يؤدي إليها التشخيص الذي يسبق الولادة: فإذا كان البعض يجد في هذا الفحص وسيلة لخدمة الأسر التي تتحمل بصعوبة طفلا مصابا بعيوب وراثية خطيرة، فإن البعض الآخر ينظرون إليه باعتباره بابا مفتوحا لممارسة تحسين النسل بواسطة القتل الرحيم للأطفال المعاقين " (بوفتاس، 2011، 280). ومع ذلك يبقى السؤال التالي قائما؛ كيف لنا أن نحرم الطفل (الكائن البشري) من أبسط حقوقه وهو الحق في الحياة؟

كما ذكرنا سالفا؛ أنه أصبح في مقدور الطب اليوم أن يحدد مدى ودرجة تشوهه الجنين في الرحم وذلك في مرحلة مبكرة من الحمل، وبالتالي إمكانية إسقاط الجنين (**إجهاض Abortion**) قبل أن يكون جنين كامل ذو روح. (وتشير بعض التقديرات إلى أن الروح تنفخ فيه عند أربعون يوما). وبعد نفخ الروح يُكفَل له ما يُكفَل للإنسان الحي خارج الرحم. وبالنظر لما للإنسان من كرامة يتمتع بها في جميع مراحل حياته وبعد موته، وجب تقدير هذه القيمة الإنساني. وقد تفطن لذلك الإنسان منذ القديم، فنجد الإنسان القديم في بابل "اعتبروا الانتحار أو القتل - ولو كان لأسباب إنسانية- جريمة يعاقب عليها القانون. لذلك كانت المرأة التي تحاول إجهاض نفسها يحكم عليها بالموت على الخازوق ولا تدفن جثتها" (جوخة، 2006، 12).

أما الزرادشتيون في بلاد فارس؛ فنجدهم يقدسون الحياة الإنسانية والحيوانية على حد سواء فوضعوا "قوانين مشددة حول العناية بالأنثى خلال فترة حملها "(جوخة، 2006، 12). هدفهم بذلك هو حفظ حياة الأم وجنينها. ولأن الجنين مشروع إنسان لا يجوز المساس به، ووجب في المقابل المحافظة على كرامته كإنسان فلا يجوز

إجهاضه إلا في حالة وجود مبرر قوي لذلك؛ كأن يشكل بقاءه خطرا على حياة الأم. وهو ما يعني أن الإجهاض يكون مقبولا إذا كان بهدف حفظ على كرامة الإنسان لا هدمها.

يقوم جدل كبير بين من يرى أن الجنين في بطن أمه ليس سوى مجموعة خلايا وبالتالية الاعتراف له بكرامته لن يكون إلا بعد الولادة. وبين من يرى أن الجنين في بطن أمه يتمتع بالكرامة الإنسانية بوصفه مشروع إنسان، أو بتعبير أرسطو هو إنسان 'بالقوة'. وفي هذا المقام يجب أن ننبه الطرفين على حد سواء إلى أنه ليس من العدل أن نتصرف كما نشاء، أو أن ننظر بمنظار واحد بمن نعترف له بالكرامة الإنسانية أو بمن سنعترف له بالكرامة أو بمن لا نعترف له بالكرامة الإنسانية كونه لا يدخل ضمن قائمة الآدميين.

إن مسألة الكرامة الإنسانية لغير الآدميين أمر مفصول فيه... ولنعود أدراجنا إلى من سنعترف لهم بالكرامة الإنسانية في المستقبل. فأين يجدر بنا تصنيف هذه الفئة؟ هل نضمهم إلى من نعترف لهم بالكرامة الإنسانية، أم إلى من لن نعترف لهم بالكرامة الإنسانية. وقولنا في قرار هذا؛ أن الجنين كونه لا محالة صائر إلى إنسان فهو أقرب وصائر إلى الإنسانية وبالتالية إلى الكرامة أكثر من ابتعاده عنها. وأما تصنيفنا له إلى الفئة التي لا نعترف لهم بالكرامة الإنسانية، فهو إجحاف في حق هذه الفئة، وسطيتها، ومستقبلها الآيلة إليه. فالجنين في بطن أمه تتعاظم كرامته يوما بعد يوم وفق هذا المنطلق.

في الإسلام تعاقب المرأة التي تجهض طفلها الذي حبلت به بسبب الاغتصاب، خوفا من المآل (المصير). وهذا حفاظا على كرامة الجنين. وقد يبتدع الإنسان أسباب كثيرة لإحلال هذا العمل (الإجهاض). هذا الأخير نفسه الذي قد تستغله الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية بغرض الاستفادة من الخلايا الجذعية الجنينية طبيا، وهو ما قد يشجع هذه الممارسة.

لقد أثبتت الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية أن الخلايا الجذعية والأنسجة مهمة لشفاء بعض الأمراض التي استعصى شفائها سابقا. ومن سلبيات هذا الموضوع هو أن الاستنساخ البشري Human Cloning أصبح يقام لهذا الغرض بالتحديد، "ويأتي الاستنساخ في المرتبة الأولى في تلك السلسلة من موجات التطور التكنولوجي، الواحدة تلو الأخرى وفي مجموعات لا يمكننا التنبؤ بها، وتم تعيينها لتحطيم الهياكل الأخلاقية لثقافتنا" (Cameron, 2006, 415) إذ ينتفع من قتل جنين سليم كان أم سقيم. ولهذا يرغب الكثيرين في العالم من كبار السن في (تجديد) أنسجتهم وأعضائهم، وهو ما أتاحته هذه الأبحاث والممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية؛ إذ في مقدور الإنسان الأناني الطبع أن يفعل أي شيء من شأنه أن يحقق له أهدافه، ضاربا عرض الحائط همسات الضمير في داخله. ولا يجعلنا هذا نفهم مما سبق ذكره على أن الاستنساخ يمارس فقط من أجل الاستفادة من الخلايا الجذعية والأنسجة للأجنة.

يعتبر **التبرع بالأعضاء Organ Donation**، نقلها وغرسها من الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية الراهنة التي وصلت إلى شرائح كبيرة من المجتمعات العالمية. وبغض النظر عن مصدر الغريسة (العضو) سواء كانت عن طريق التبرع طواعية واقتناعا؛ فإن المُكرَه، المُغتَصَب، الذي انتزعت منه أعضاء، وزرعت في إنسان آخر؛ يكون قد انتهكت كرامته كإنسان بهذه الممارسة. فضلا على الأشخاص الذين تم اختطافهم لهذا الغرض، حتى أن "المعلومات المتاحة عن الاتجار بالأشخاص بغرض انتزاع أعضائهم غير كاملة ولا يتم التحقق منها في كثير من الاحيان" (نغوزي إزيلو، 2013، 7)

إن كرامة الانسان تمنعنا من أن نفرق بين كيانه كشخص مكتمل، وبين أعضاءه، ويحسب لهذه الممارسة ما حمته من آمالا كبيرة. ولكن، "في نفس الوقت الذي أيقظت فيه مثل هذه العمليات أحلام الإنسان القديمة المرتبطة بتمديد الحياة؛ طرحت عدة مشاكل أخلاقية غير مسبوقة، منها ما يتعلق بالأعضاء التي تؤخذ من الأشخاص الذين ماتوا حديثا، أو التي يتبرع بها أشخاص أحياء، كما أن بعضها يخص المستفيدين، وبعضها الآخر يخص المتبرعين فرغبة المستفيدين في الشفاء والبقاء على قيد الحياة، ورغبة الأطباء في تحقيق العلاج أمور بديهية، إذ

بالنسبة للمهدد بالموت، تعتبر الأخطار العضوية المرتبطة بلفظ العضو المزروع أو بما يمكن أن ينقله هذا الأخير من عدوى أخطار تافهة. كما يتكلم المختصون عن الصدمة النفسية التي تنجم عن زرع العضو، وما يرتبط بها من تعرض صورة المستفيد عن ذاته للإهتزاز وشعوره بالذنب تجاه المتبرع" (بوفتاس، 2011، 148)

لذلك فإن الأعضاء تحظى بالكرامة نفسها، التي يحملها الانسان في مجمله، ومن هذا الباب لا ينبغي التفريق بين المتاجرة بالبشر والمتاجرة بالأعضاء. إن التفرقة هذه هي أحد الأسباب الرئيسية في فشل إعمال النصوص القانونية الخاصة بالاتجار بالأعضاء وبالبشر إذ نجد " تشبث بعض الدول والمنظمات الحكومية الدولية دوما بالتفريق بين الاتجار بالأعضاء والاتجار بالأشخاص بغرض انتزاع أعضائهم" (نغوزي إزيلو، 2013، 18)

إنه لمن الواجب التدقيق في مسألة الطواعية في التبرع بالأعضاء، لا أخذها على ظاهرها، فإذا ما قادت الظروف المعيشية المتردية الانسان نحو التبرع، أو أنه يهدف إلى الانتقام من نفسه أو من غيره، أو له أهداف يبغي بها هلاك ذاته، فإنما هي محض ظروف جعلته يقدم على القيام بهذا التبرع فلا يدخل ضمن المتبرعين الطوعيين، فتبرعه هذه جاء تحت وطأة الظروف. ويبقى في نهاية المطاف كل الأعضاء المنزوعة طواعية أو قهرا هي ممارسات لها من الأثر البالغ على كيان الإنسان المعنوي إيجابيا وسلبيا.

لقد بلغ هذا المجال (زراعة ونقل الأعضاء) من التطور الكبير، الذي أصبح معه من الممكن في المستقبل القريب نقل مخ من إنسان إلى آخر، استنادا إلى أنه قد تُوُصِل إلى تبريد المخ لبضع ساعات محتفظا بقابليته للانبعاث من جديد. وهو ما يعني إنه في حالة أن أصبح هذا الممكن حقيقة؛ فسيتم إنهاء حياة شخص ما من أجل الحصول على جسمه السليم وزراعة مخ سليم فيه، منتزع من جسم ضرير. وهنا يطرح السؤال هل كان من الضرورة إنهاء حياة شخص من أجل أن يعيش آخر؟ وما الأفضلية القائمة بين الأشخاص؟

دعنا نبسط الأمر قليلا ولنقول أن أحدهم تبرع بجسمه. وهنا نقع في الحرج متسائلين: هل تبرع بحياته أم أنه أنهى حياته؟ هل الحياة التي ستستمر لصاحب الجسم أم لصاحب المخ؟ ألم يخبرنا الطب الحديث أن الموت الحقيقي هو موت الدماغ !؟ إذن فالأمر سيان تبرع بحياته أو بمخه أو حتى بأعضائه كلها. هو تعدي على كرامته وكيانه كإنسان. هو ضرب من الانتحار إن كان طوعا، وقتلا إن كان كرها أو جهلا من المتبرع بالنتائج. لأنها ممارسة لا تهدف لحفظ حياة المتبرع والمستقبل بل ستدمجهما في إنسان واحد. وهنا نتساءل هل ستنتقل البشرية إلى مرحلة لا موت الأرواح، وبالتالي الانتقال من جسم إلى آخر ...؟

إن الشخص الميت لا يجوز أن ندوس كرامته، فهو لم يتجرد منها، وإنما يحملها كباقي الأحياء. إلا أن الطريقة التي تتجلى بها فيه، تختلف عند الأموات منها عند الأحياء، وليس أدل على كرامة الميت من طريقة التعامل معه عند مختلف الثقافات والشعوب. لكن بعض الممارسات البيوتكنولوجية والبيوطبية اليوم قد جعلت من هذه المكانة والكرامة على المحك، بل جعلت كرامته تندثر باندثار النفس والدقات من صدر الميت؛ تصرفا في أعضائه، بزرعها في إنسان آخر.، وبالتجريب عليه...

ألا يشعر الشخص الذي زرعت له كلية أو أي عضو آخر من شخص آخر... أنه يحمل بين جنباته كرامة إنسان آخر، كونه دائما سيفكر في قيمة فعل المتبرع وفي قيمة عضوه، ومنه فإن كرامة هذا المستقبل من كرامة ذاك المتبرع ...

لقد نصت الشريعة الإسلامية أن لا نعاقب المرأة الزانية الحامل، حفاظا عليها وبالتالي جنينها. ومما يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد أرجع المرأة التي أتت تقر بفعل الزنا حتى تضع ثم حتى تفطم ليقام عليها الحد بعد ذالك. وفي هذا حفاظا على كرامتها كامرأة حامل، ثم كمرضع، وعلى كرامة الجنين كانسان، وعلى كرامة الرضيع كذلك.

تصنع الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية وتنظم ما تقوم بصنعه، فبعد أن أتاحت للإنسان نقل وزراعة الأعضاء، أنشأت **بنوك** تخزن وتحفظ فيها الأعضاء. لكن لهذا المنجز نتائج سلبية وخيمة؛ كأن تتحول أعضاء

الإنسان إلى سلعة تباع وتشترى، وبالتالي ستخضع إلى قوانين العرض والطلب؛ فتتذبذب قيمتها، وبالتالي قيمة وكرامة الإنسان. هي البنوك التي تجعل من الإنسان مصنع (إنتاج البويضات، الأنسجة، الخلايا،..) وهي بنوك تتيح كذلك للأشخاص إختيار ما يليق بهم... ومنه تأتي مشروعية التساؤل التالي: ما مصير البويضات الملقحة (كمشروع إنسان) يتمتع بالكرامة إن لم يتم إختيارها ؟ ما مصير الأعضاء التي تتميز بصفات لم تصبح لائقة لموضة ومتطلبات العصر: طولا، أو عرضا، أو قصرا، أولونا، أو عرقا...؟

توصلت البيوتكنولوجيا إلى إيجاد فئران من دون رؤس وهو ما "يوقظ شبح البشر عديمي الرؤوس المُحدَثين فقط من أجل وهب الأعضاء"(هيرينغ، 2011، 188) لتخزن في البنوك كقطع للغيار وكحافز على سياحة زراعة الأعضاء.

سينتج عن هذه البنوك اختلاط في الأنساب. وستفضي في نهاية المطاف إلى أن يصبح الإنجاب يتماشى مع الموضة كأن تأتي مرحلة تحب فيها النساء الأطفال السمر، ثم في فترة تأتي مرحلة تحبين أطفال شقر الشعور، علما أن هذه الصفات تعود إلى نوعية الحيوانات المنوية والبويضات المختارة والتي تحمل كروموسومات تحدد الصفات التي يخرج الطفل مزود بها.

نظرا لتنامي حقوق الشواذ والمخنثين في العالم، فإن هذه البنوك قد تكون مرتعا لأشخاص يهدفون إلى تحويل أجناسهم. **التحول الجنسي trans-sexual** بمعنى العبور إلى الجنس الآخر والذي يحدد أحيانا بالتخنث أو الترجل أو مغادرة الجنس، وهو تغيير جنس الإنسان إلى جنس لا يمثل جنسه الحقيقي كمولود بشري.. ويحدث هذا التحول عن طريق إجراءات طبية وعمليات جراحية تلعب الهرمونات البديلة دورا مهما فيها إلى جانب العمليات الجراحية التجميلية للمتحولين: كنموّ اللحية، تغيير الشعر، الصوت وتوزيع الدهون.

يغيب عن معظمنا الدور الإيجابي الذي تلعبه مثل هذه العمليات الغريبة والمقرفة أحيانا، إلا أنه بالكاد لها دور إيجابي يتمثل في أنها تقام بعد تحديد الجنس بالنسبة للأشخاص الذين يولدون بأعضاء تناسلية مزدوجة ذكرية وأنثوية، ففي سن البلوغ عندما تُحدد الأعضاء التي تعمل لدى هؤلاء الأشخاص يتم نزع الأعضاء العاطلة. ونحن في هذا المقام سنتحدث عن الانتماء النفسي الذي يشعر به هذا الشخص، إذ قد نجد هذا الشخص يشعر بانتمائه إلى الجنس الذي لا تعمل فيه أعضاء التناسلية. وهذا الباب سيحيلنا لا محالة إلى أشخاص لا يحملون أعضاء تناسلية مزدوجة (ذكرية وأنثوية) وانتمائهم البيولوجي إلى جنس واحد فقط، ويشعرون نفسيا انتمائهم إلى جنس آخر. هذه النقطة بالذات هي ما يبرز الدور السلبي الذي تلعبه الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية في عمليات التخويل الجنسي، فيقوم المختصون بنقل الفرد من جنس إلى آخر دون الوقوف على الاعتبارات الملحة والواعية التي تجيز عملية التحويل الجنسي، حيث أن خلو أساس طلب التحويل الجنسي من الاعتبارات الواعية المرتبطة بكرامة الإنسان يعتبر مساس بالكرامة الإنسانية وتلاعب بها...

يسعى اليوم بعض من الآباء إلى أن يمتلك أبنائهم صفات معينة دون اللجوء إلى بنوك الأمنية والأعضاء وهو ما تحققه البيوتكنولوجيا من خلال مشروع **تحسين النسل Eugenics** . يقول هابرماس: "إن التقدم المشهود في النسالة الذرية لمّا يزل يجعل ما نحن فيه بطبيعتنا مُمَهَّدا دائما للتدخلات البيوتقنية" (هابرماس، 2006، 34) إذ تعود المحاولات والمنطلقات الأساسية الأولى لفكرة تحسين النسل* البشري إلى تأثير "نظرية الانتكاس والإنحطاط،

* – هذا المصطلح الذي "لم يظهر إلا أواخر القرن 19، حيث قام فرنسيس جالتون Francis Galton بنحت المفهوم سنة 1883 مستعملا لأول مرة الكلمة الإنجليزية 'Eugenics' اعتمادا على أصول لغوية يونانية تدل على (السلالة الجديدة) كما ميز فيما بعد بين نوعين أساسيين من تحسين النسل: تحسين النسل الإيجابي الذي يهدف إلى دعم الخصائص البيولوجية والنفسية والعقلية الإيجابية وتشجيع الأفراد الأكثر كفاءة. من جانب وتحسين النسل السلبي؛ الذي يسعى إلى استبعاد الخصائص البيولوجية السلبية وتقليص انجاب الأفراد الضعاف وذوي العاهات والعاجزين عن التكيف الإجتماعي"(عبد الحليم عطية، 80،2010).

وظهور نظرية التطور الداروينية وما تركته من آثار في الأوساط العلمية والفلسفية، ونشأة علم الوراثة، وتبلور التوجهات العنصرية، إضافة إلى فكرة تحسين النسل نفسها" (عبد الحليم عطية، 2010،81) فما نلاحظه أن هذه العوامل كلها تلعب على أوتار البشري بداية من الانحطاط ونهاية عند تحسين النسل البشري.

حسب اعتقاد الإنسان المعاصر فأنه بإمكانه أن يكفل للإنسان كرامته من خلال ضبط النسل وتحديد صفاته الخلقية والخلقية. "حيث أصبحنا قادرين ليس فقط على انتقاء أطفالنا وذريتهم، ولكن 'تصميمهم' إلى الأبد" (Cameron, 2006, 415) لكن تحسين النسل بهذه الطريقة المخبرية، ما هو إلا نزعة عنصرية بثوب جديد؛ تقصر وتهين وتدوس كرامة من شملهم التحسين بداية، ومن لم ولا يشملهم التحسين كذلك. بالارتكاز على قواعد علمية تدعي تحسين الجنس البشري وإخراجه من الأمراض النفسية والفيزيولوجية والعقلية.

يبرز الثوب العنصري لتحسين النسل عبر التاريخ من خلال ما قامت به النازية مثلا؛ حيث "أصدر هتلر في 14 يوليو 1933 مرسوما حول الصحة والوراثة يتضمن قانون للتعقيم كان يشكل الخطوة الأولى في برنامج مكثف لتحسين النسل سيودي بحياة ملايين الأشخاص خلال الإثني عشر سنة التالية" (عبد الحليم عطية، 2010،84).

وقبل هذا التاريخ في الولايات المتحدة الأمريكية فيما بين سنة 1911 وسنة 1930؛ أصدرت 34 ولاية مجموعة من القوانين التي تشجع التعقيم، بهدف التخلص من الأفراد الضعاف، العاجزين عن التكيف الإجتماعي؛ كالمختلين عقليا، والمجرمين، وسن قوانين أخرى تحد من الزواج المختلط. وقد تمادى بهم الوضع حتى أنه شهدت سنة 1924 "تحالفا بين علماء تحسين النسل والمستثمرين، أدى إلى الاقتراع المعروف ب (Johnson Act) والذي تم بموجبه الحد من هجرة الأشخاص القادمين من أوروبا الشرقية والبلدان المتوسطة بحجة أنهم بعيدون وراثيا عن السلالة الأنجلوساكسونية، وأنهم بالتالي سيلوثون (الدم الأمريكي النقي) وكان الكل يردد إن خلاص أمريكا يتوقف على قوة عزمها في القضاء على العناصر المتدنية بيولوجيا وتشجيع تكاثر النساء والرجال الأكفاء"(عبد الحليم عطية، 2010،84).

لكن أليس من الأجدر أن نتساءل؛ هل الأمراض النفسية والعقلية هي ما يهدد الكرامة الإنسانية، أم الإنسان نفسه هو ما يهدد كرامته؟ وكأننا سنصنع في البشرية أناس على نحو خاص، يمتازون بكل المقومات التي تجعلهم يتعاملون بطلاقة ويتكيفون مع هذا الزمن المتسارع. وأناس ليس لهم القدرة على أن يلتحقوا بهذا الركب، لا عذر لهم سوى أن آبائهم لا يملكون ما يجعلون أبنائهم يلتحقون بهذا الركب.

يعتقد الدكتور أحمد عبد الحليم عطية أن "مساهمة هابرماس بالمراهنة على مبدأ أن الإنسان كائن متفرد ونسيج وحده، وأن التدخل في مادته الوراثية انتقاء وتعديل يعني انتهاك حرمة الطبيعة البشرية، وإطلاق العنان لحرية التصرف في الصورة الطبيعية والرمزية التي تحملها البشرية عن نفسها. ومن هنا فإن من حق كل إنسان أن يمتلك إرثا جينيا طبيعيا لم يمسس من قبل، ولم يخضع لأي تدخل أو تعديل اصطناعي"(عبد الحليم عطية، 2010،94).

سيشعر كلا من المحسن جينيا والغير محسن بالظلم الوراثي؛ سوف لن يرضى المحسن بما سطره له الأبوين، وسوف لن يرضى الغير محسن بالوضع الذي يعيشه من الذل والهوان المسلط عليه، كونه لا يمتلك من الصفات التي تمكنه من أن يكون كالبقية المحسنة جينيا. وبالتالي التكيف الحسن وفق ما سطره المبرمجون لهذا الإنسان. استجابة لرغبات الآباء من أجل اختيار ما يرونه أفضل تشكيلة جينية لأبنائهم.

سيتساءل الفرد المُحَسَن في نهاية المطاف لماذا كنت على هذا النحو ولم أكن على نحو آخر؟ أو بالأحرى إن كان في مقدورهم الاختيار؛ فلماذا شكلوني على النحو هذا، ولم يشكلوني على نحو آخر أحسن أو مختلف؟ قد يحدث هذا عندما يكبر الإنسان ويدرك طريقة تكونه والخصائص التي اختارها والداه من أجل أن يخرج مزود بها وهو ما يشعره بأن "مصيره ومشروع حياته قد تم الحسم فيهما من طرف آخرين مسبقا. وبالتالي قد لا يكون راضيا تمام

الرضا عما وُهِب من صفات من قبيل طول القامة، ولون الشعر وعينيه، ومزاجه وقدراته العقلية وميولاته وستفقد تلك الصفات قيمتها في نظره"(عبد الحليم عطية، 92،2010).

إن كرامة الإنسان قد داسها الوالد أو الولي المسطر لهذا الشخص المحسن جينيا، بانتقائه صفات معينة لابنه وهو ما يعني أن الصفات الأخرى لا قيمة لها في نظره، وداس الشخص المحَسَنُ جينيا كرامة الإنسان بعدم رضاه عن الصفات والقدرات التي يمتلكها، والتي وهبها أياه الوالد والعالم المبرمج. ولا يمثل العالِم الذي طبق الأبحاث البيوتكنولوجية والببوطبية -وبالتالي التحسين - إلا سيف الملك الظالم الذي سلط على الإرث الجيني لنبني البشر. ومنه فإن هذا الجدل هو ما ينهش جسد الكرامة الإنسانية من الداخل ليحولها إلى خراب...

ما أدراك أيها الإنسان القلق المستعجل المترقب والمحدق في الصفات أنّ ما تختاره لهذا الجنين؛ هي الصفات التي تمكنه من التكيف الأحسن مع المستقبل؟ هل نبني رغبتنا في تحسين النسل عل اليقين أم على التنبؤ؟ إن ما نستطيع الجزم به هو أن الإنسان عموما له من القدرات العقلية والنفسية المحدودة ما يمكنه من التعامل مع ذاته ومع الكون بأريحية وتبصر، لكن ما لا نستطيع الجزم به، هو أن المستقبل سيكون على شاكلة معينة دون أخرى. إذن كيف لنا أن نجعل من اللا يقين أساس نبني عليه مستقبل حياة أشخاص من الصعوبة بمكان التغيير فيها فيما بعد إن لم نقل يستحيل التغيير فيها؛ كما أنه "ثمة عوامل عديدة مجهولة تتدخل في تحديد طبيعة هذا المجتمع. وليس باستطاعة أي شخص كان أن يتنبأ بأن مورثات أو جينات معينة بالذات، هي التي يمكن أن تتضمن تزويد الأطفال بقدرات واستعدادات خاصة للنجاح"(عبد الحليم عطية، 92،2010).

إن تحسين النسل يعني التحسين إلى الأبد؛ أي أن ممارسة هذه العملية على كل المواليد التي ستأتي فيما بعد ليكون المجتمع البشري كله على قدر واحد من الصفات والإستعدادات، وإلا فإن الصفات الطبيعية الأصيلة ستعاود الظهور من جديد وهنا مكمن الصعوبة. واستحضار فكرة التحسين توحي بأن الإنسان قد فقد مكانته، قيمته وبالتالي كرامته. ونحن نحاول أن نرجع له ما فقد بتطبيقاتنا البيوطبية والبيوتكنولوجية الخاصة. سيوصلنا التحسين أخيرا إلى "مجتمع رتيب وغير فعال سيكون لدينا إذا كان الجنس البشري مستنسخا عملاقا، بدلا من أن يكون مجتمعا بمواهب متنوعة، وشخصية فريدة في كل مولود جديد"(هيرينغ، 2011، 188).

إن تحسين النسل هو ما يعني فرض سلطة جيل ما على كل الأجيال التي تليه إذ " يمارس كل جيل سلطته على من يخلفه: وكل جيل، بقدر ما يعدل البيئة الموروثة له ويتمرد على التقاليد، يقاوم ويحد من سلطة أسلافه... كل تقدم يتركه أضعف وكذلك أقوى" ( Cameron, 2006, 421)

لا يعطي مشروع التحسين بتطبيق تقنيات ما قبل الزرع (التلاعب بالجينات) الحق بالتطور والوجود للأشخاص إلا بعد استقصاء وراثي، يتناسب مع الكرامة الإنسانية التي يتصوروها الممارسون للتحسين الجيني. كأن يكون على قدر من القدرات والصفات التي تسمح له بالتأقلم مع الأوضاع الراهنة. ويتساءل هابرماس "هل لنا الحق في أن نعرض الحياة البشرية لغايات الإنتقاء؟") (هابرماس، 2006، 29) سؤال يأتي وقد أخذ الإنسان على عاتقه التطلع بالتحكم في حاضره وفي مستقبله البيولوجي، جاعلا من نفسه بطلا ينقح ويعدل من المعايير التي يحكم بها على الكرامة الانسانية مرة يدوسها ومرة يلامسها ومرة غير ذا وذاك...

مما سبق يمكننا القول إن البيوتكنولوجيا تهدف إلى صناعة الإنسان المعاصر من خلال الانتقاء الجيني، وعمليات التجميل الجراحية والعقاقير ذات التأثيرات النفسية وغيرها...، وبهذا ستكون صناعة الإنسان في ظروف تصارع الظروف الطبيعة (ظروف القدر). ومنه فإن الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية على الإنسانية عامة من أجل ارتفاع معدل الصحة وبالتالي معدل الحياة، هو سعي للرفع من قيمة الانسان وكرامته الإنسانية، لكن الوجه الخفي لهذه الممارسات له من السلبية ما يجعنا نقلع عن ممارستها. وهي ممارسات تسعى إلى إيجاد الإنسان السوبرمان فيزيولوجيا ونفسيا. من خلال استبدال الأعضاء التالفة وتحسين نسله بانتقاء أحسن المواصفات.

إن الارتكاز في الوصول إلى هذا الانسان السوبرمان على أشخاص وأنقاض أشخاص، أمر يخدش كرامة الإنسان. أليس الأجدر أن ننهض بالبشرية جمعاء عوضا أن نقيم ونشيد صرح فئة على فئة أخرى ؟ وستكون

البيوتكنولوجيا على الأرجح حسب فوكوياما في المستقبل صفقات تقايض بين طول العمر ونوعية الحياة ستكون العواقب وخيمة على كرامة الإنسان. سيضطر الضعيف الفقير المحزون أن يقايض أغلى ما يملك (جسمه) مثلا من أجل أن ينعم بنوعية بحياة أفضل. ومنه نقول "إن تحسين النسل الجديد، بسعيه للحصول على أطفال بمواصفات محددة سلفا، لا يخفي وراءه أهدافا عنصرية غير مصرح بها فحسب، بل أكثر من ذلك يهدد بهذه الإجراءات التنوع البشري والاختلاف البيولوجي الذي يعتبر ضروريا لحياة الأفراد والجماعات الإنسانية. وبالنسبة للأكثر تشاؤما، هو أكثر من ذلك يهدد الوجود البشري عموما ويسعى إلى إنتاج جنس جديد هو أقرب إلى الآلات منه إلى بني البشر." (بوفتاس، 2011، 357)

يتبين من خلال الجهود البيوتكنولوجية والبيوطبية المبذولة من أجل **إطالة الحياة** أن ننظر إلى الموت على أنه ذاك الحقير الذي يريد أن ينغص على البشر كيانهم. وكما عبر فرنسيس فوكوياما عن طريق البيوتكنولوجيا سيعاق تقدمه نحو البشر فأورد أمراض يمكن وقف تقدمها نحو البشر وستفقد بعض القيم المقترنة بالموت قيمتها "سيبدو الموت خيار أحمق لا شيئا يجابه بالوقار والنبالة. هل سيظل الناس يرغبون في التضحية بأرواحهم في سبيل الآخرين "(فوكوياما ،2002، 116).

إن البحوث البيوتكنولوجية والبيوطبية لا تزال قائمة من أجل زيادة العمر المتوقع للإنسان، وإبعاد شبح الموت. ويكون هذا سواء تحقق الأمر يوما أم لم يتحقق؛ كأن يأخذ الإنسان حبة بسيطة تضيف إلى عمره عقدا أو عقدين من الزمن...

يقول فرنسيس فوكوياما موضحا "الاتجاه الطبيعي أن يفسح كل جيل الطريق للجيل التالي، أما الآن فستتزامن ثلاثة أجيال وأربعة وحتى خمسة" (فوكوياما، 2002، 109). فإن إطالة الحياة قد ينجرّ عنها زيادة عدد السكان المتواجدين على هذا الكوكب وبالتالي مصاعب الحياة، التأمين والعمل والبطالة... بسبب زيادة في سنوات العمل من أجل الحصول على التقاعد. لكن هل سيتمكن المشرفون والمستثمرون والباحثون في البيوتكنولوجيا والطب الحيوي؛ من أن يكفلوا حقوق الأجيال الناشئة من عمل وتأمين و... أم أنهم سيضطرون إلى الحفاظ على العمال كبيري السن؟ أليس من الأجدر تسريحهم من أجل الحصول على يد عاملة نشيطة خبيرة بخبايا العصر ومستجداته؟ سيتبادر إلى أذهاننا كذلك أن نستفسر عن حال كبار السن هل كلهم في حاله صحية جيدة هل سيكفل الطب الحيوي والبيوكتنولوجيا لهم السلامة والصحة والرشاقة؟ أم أنهم سيكونون عالة على غيرهم، يعتمدون في بقائهم على قيد الحياة على غيرهم من أقاربهم، وسيلعبون دور الميت دماغيا خارج المستشفى. إذن لماذا خلق الموت أصلا ؟

**خاتمة:**

إن الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية قد توصلنا إلى عالم جديد فيه من الأصحاء والسعداء ما لم يسبق لأجيال البشرية السالفة، كما تزيد الممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية من اتساع الهوة بين البلدان الفقيرة والبلدان الغنية، أو قل بين الأغنياء والفقراء؛ نظرا للتكاليف الباهظة التي يحتاجها الشخص الذي يريد أن يستفيد من النتائج التي توصلت إليها الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية، ولنأخذ على سبيل المثال تحسين النسل الذي من غير المتاح لشخص يعيش الفقر أن يكفله لأبنائه القادمين، وهو ما يعني أولا وأخيرا انحصار استعماله على فئة معينة. ولها أن تكون سببا في تعاسة الكثيرين بأن تسلبهم الصحة؛ أعضاء، أنسجة، خلايا جذعيه ... حياة.

لقد أصبح الطريق رغم وضوحه مظلم، فنحن ندري أن الأعضاء الموجودة في البنوك إما تبرع بها شخص طوعا أو قهرا، ومع ذلك نحن نتجه إليها من أجل الاستفادة من الأعضاء الموجودة فيها. أليس في القهر والإكراه بشتى أنواعه؛ تعدٍ على كرامة الإنسان. قهر بالقوة أو وفق ظروف المعيش التي تودي به إلى التبرع من أجل أن يكفل لنفسه أو لغيره حياة سعيدة.

سيقوم عالم خارج على القانون، عاجلا أم آجلا، حتى في أبسط الأمور الترفيهية. قد يقول بعضنا أن الشخص المعدّل هو إنسانا عادي وهذا الخروج يعود إلى أن "هناك إجراءات طبية وجراحية جديدة تضفي إبهاما على الخط الفاصل بين الإصلاح والتعزيز" (فوكوياما، 246،2002) خذ لك مثلا لاعب كرة قدم حظي ببعض العمليات الجراحية التي بمقتضاها تم تزويده بقدرات إضافية شعورية وميكانيكية روبوتية على القدرات الطبيعية التي يمتلكها، بهدف تفويقه في طريقة اللعب وتسجيل الأهداف والسيطرة على مجريات اللعب. ألن يثير هذا اللاعب من الجدل الواسع في الأوساط الرياضية وغيرها من الأوساط التي قد يتعدى الأمر إليها بأن تحتوي أناس من هذا القبيل. ألن يثار ذاك الجدل الذي يحاول الفصل بين الإنسان والآلة في الإنسان ذاته...

لا يسعنا حيال هذا الموقف إلا القول إن "معجزات الطب الحديث قد لا تكون لدى القيام بها، سوى لعنات على المتلقين" (هيرينغ، 2011، 189،188) ومما يجب على العلماء هو "أن يتجنبوا الإضرار بالمجتمع، كما يجب عليهم تحقيق منافع اجتماعية. ويجب أن يكون العلماء مسئولين عن عواقب أبحاثهم وأن يبلّغوا الجمهور بهذه العواقب" (رزنيك، 2005، 98).

إن ما أتاحته الأبحاث البيوطبية والبيوتكنولوجية، أفضت إلى ضرورة وجود تكامل بين العلم والأخلاق والقانون؛ حماية للكرامة الإنسانية... فكل مزيد من التقدم البيوطبي والبيوتكنولوجي، هو مزيد من التماس بين الإنسان وهذا السلاح ذو الحدين. فبقدر ما يساهم في إنماء وتقدم الحياة الصحية والنفسية والفيزيولوجية للإنسان، يساهم بالمقابل من ذلك في المساس بكيانه المعنوي (كرامته). فهي تتيح للإنسان التحكم في أي شيء، حتى أنه أمكنه التلاعب بما لا يحق له التلاعب به.

إن الأبحاث والممارسات البيوطبية والبيوتكنولوجية المعاصرة، بالقدر الذي أعانت الإنسان في استعادة أجزاء كبيرة من كرامته المهدورة، بالقدر الذي أتاحت الفرصة لهدر قدر كبير من كرامته، من خلال فتح معابر غير مباشرة للوصول إلى أعماق كيانه المعنوي.

**المراجع:**


1. ابن منظور، (د ت). لسان العرب ج43 : مصر ،.دار المعارف.
2. فرنسيس فوكوياما، (2002) نهاية الانسان وعواقب الثورة البيوتكنولوجية، تر: أحمد مستجير، القاهرة، دار سطور للطباعة والنشر.
3. ديفيد ب. رزنيك، (2005)، أخلاقيات العلم، تر: د. عبد النور عبد المنعم، الكويت: عالم المعارف، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب .
4. جوخة الريامي، (2006)، مفهوم القتل وإشكاليته الطبية، دراسة في فلسفة الأخلاق التطبيقية، مصر: الدار المصرية اللبنانية.
5. هابرماس يورغن، (2006)، مستقبل الطبيعة الإنسانية نحو نسالة ليبرالية، تر: جورج كتورة و مر: أنطوان الهاشم، لبنان: المكتبة الشرقية.
6. أحمد عبد الحليم عطية، (2010)، قراءات في الأخلاقيات الراهنة، مصر: دار الثقافة العربية
7. مارك ي – هيرينغ،( 2011)، قصة تكنولوجيا الهندسة الوراثية، تر: رفيف كامل غادر، الكويت، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
8. جوي نغوزي إزيلو، الاتجار بالأشخاص وبخاصة النساء والأطفال، مذكرة من الأمين العام للأمم المتحدة ، الدورة الثامنة والستون، 02 أوت 2013.
9. عمر بوفتاس، (2011)، البيوإتيقا (الأخلاقيات الجديدة في مواجهة تجاوزات البيوتكنولوجيا)، المغرب، إفريقيا الشرق.
10- Nigel M. Cameron, Biotechnology and the Future of Humanity, 22 J. Contemp. Health L. & Pol'y 413 (2006).
11- The President's Council on Bioethics, Human Dignity and Bioethics, Washington, D.C. WWW.BIOETHICS.GOV, March 2008.